الفاطميــون وجهـادهـم ضــد الصليبييــن
في عهد جودفري حامي القبر المقدس
(٤٩٣-٤٩٤هـ\١٠٩٩- ١١٠٠ م)

د. عائشة بنت مرشود حميد الحربي*
كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة طيبة
المملكة العربية السعودية

المقدمة

يتناول هذا البحث بالدراسة موضوع الفاطميون وجهادهم ضد الصليبيين في عهد جودفري (٤٩٣-٤٩٤هـ\١٠٩٩-١١٠٠ م) ،وقد اشتد الصراع الصليبي الفاطمي عشية الاستيلاء الصليبي على بيت المقدس (٤٩٣هـ \ ١٠٩٩م) ثم تتويجهم لجودفري حاكما لمملكة بيت المقدس ، فتطلع لتوسيع بلاده وذلك بالاستيلاء على المدن الفاطمية في فلسطين وبلاد الشام ،ولأجل هذا الغرض جند الجنود ،وأنفذ الجيوش للعديد من المدن الفاطمية ، وفي المقابل تصدى لهم الخلفاء الفاطميين ، وفي مقدمتهم الخليفة المستعلي ،إذ أرسل لهم جيشا بقيادة وزيره الأفضل بن بد ر الجمالي .

وكانت معركة عسقلان بأحداثها ونتائجها خير نموذج لهذا الصراع ومن أهم الأسباب التي دفعت الباحثة إلى اختيار هذا الموضوع هو توضيح جهود الدولة الفاطمية في محاربة الكيان الصليبي في بلاد الشام ، مع التأكيد على أن غياب الجبهة الإسلامية الموحدة ، وتفكك المسلمون وانشغالهم بالصراعات الداخلية والخلافات المذهبية كان السبب الرئيسي في فشل المحاولات الفاطمية ، إذ لم تدعمها القوات الإسلامية الأخرى بشئ ، هذا بالإضافة إلى إثبات

---

* أستاذ التاريخ الوسيط المساعد، جامعة طيبة، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.

زيف المزاعم الصليبية بأن الغرض من قدومهم كان لأجل غرض ديني فقط ، وهو استرداد بيت المقدس ، ولو كان هذا هدفهم الحقيقي لما تطلعوا للتوسع على حساب النفوذ الفاطمي .

أما عن منهج الدراسة فهو وصفي وتحليلي بقدر المستطاع بغرض الوصول إلى الحقيقة التاريخية نسبيا .

وقد تم تقسيم البحث إلى محورين أساسيين .أما المحور الأول فهو يتناول تمهيد تاريخي تعرض الباحثة فيه قدوم الحملة الصليبية الأولى (٤٩٠هـ \ ١٠٩٦م) ونجاحهم في تأسيس الكيانات الصليبية ، ثم اجتماعهم لاختيار حاكما لمملكة بيت المقدس ، فأستقر الرأي على ترشيح جودفري

أما المحور الثاني فهو يتصدى بالدراسة لمحاولات جودفري للاستيلاء على الأراضي الفاطمية في فلسطين ،فمنها تم الاستيلاء عليها عنوة ، والأخرى عن طريق الاستسلام والصلح .

وأخيرا أوردت الباحثة خاتمة لبحثها ذكرت فيها أهم النقاط التي تم طرحها ومناقشتها ، وأهم النتائج النسبية التي تم التوصل إليها .

تمهيد:

شهد العالم الإسلامي قدوم الحملات الصليبية إليه منذ أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، واستمرت لمدة قرنين من الزمان[١] . وقد دعا البابا أوربان الثاني

---

[١] عن تفاصيل قدوم الحملات الصليبية انظر ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، مكتبة المتنبي، القاهرة، د.ت.؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ط ١٩٧٩م؛ وليم الصوري، الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، ج٤،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م . سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جزآن، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٧، ١٩٩٧م ؛ هانس ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة عماد الدين غانم، مجمع الفاتح، ليبيا، ١٩٩٠م .

Archer (T.), *The story of the Latin kingdom of Jerusalem*, London,1894.Conder, *The Latin kingdom of Jerusalem*, London,1897; Grousset,(R), *Histoire des croisades et du Rouame franc. de Jersalem*, Paris,1943.

Urban II (٤٨١ – ٤٩٣هـ / ١٠٨٨ – ١٠٩٩م) لعقد المجمع الديني في مدينة كلير مونت بفرنسا ٤٨٩هـ / ١٠٩٥م[٢] . وأعلن البابا في هذا المجمع بداية إرسال الحملات الصليبية إلى العالم الإسلامي ، وذلك بغرض تخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين ، وإنقاذ المسيحيين المضطهدين هناك[٣] .

وهذا الهدف أوقد العاطفة الدينية في النفوس ، لذا تحمس العالم الأوروبي بكافة طبقات مجتمعه للخروج في هذا الجهاد المقدس[٤] .

وكان العالم الإسلامي في ذلك الوقت متفككًا ومتناحرًا[٥] إذ حكمته آنذاك الخلافة العباسية العباسية والتي قد أصابها الضعف ، وانفصال كثير من الدويلات عنها. أما الخلافة الفاطمية فكانت تختلف مذهبيًا مع الدولة العباسية[٦] ، ونجح حاكمها الفاطمي الحاكم بأمر الله (٣٨٦ – ٤١١هـ / ٩٩٦– ١٠٢٠م) في السيطرة على بيت المقدس[٧] .

وفي عام ٤٩٠هـ / ١٠٩٦م خرجت الحملة الصليبية الأولى على شكل حملة شعبية إذ اشترك فيها حتى الأطفال والنساء وقادها بطرس الناسك peter the Hermit لكن السلاجقة[٨]

---

[٢] وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١، ص ٩٩ – ١٠٥ ؛ أرنست باركر، الحروب الصليبية، ترجمة السيد العريني، دار النهضة العربية، القاهرة، ص ٢٣ .

[٣] مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة، ص ١٧ .

[٤] محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية، دار عين، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م، ص ٧١ .

[٥] محمد محمد مرسي الشيخ، الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٠م، ص ٩ – ٣٣، حامد زيان غانم، الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، دار الثقافة، القاهرة، ط١٩٨٣م، ص ٤٥ – ٤٦ .

[٦] أحمد الشريف، حسن محمود، العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١٩٩٥م؛ أحمد العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧١ ؛ يوشع براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين، ترجمة عبد الحافظ البنا، دار عين، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م، ص ١١ .

[٧] وليم الصوري، الحروب الصليبية ، ج١، ص ٦٩ ؛ محمد عبد القادر أبو فارس، دروس وتأملات في الحروب الصليبية، دار جهينة، عمان، ط١، ٢٠٠٢م، ص ٧٧ .

[٨] مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ١٩؛ جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، الإسكندرية، ط١، ١٩٨٣م، ص ١٤١ – ١٥٠ .

الأتراك تمكنوا من إلحاق الهزيمة بهم عند قونية[٩] . بعد ذلك خرجت الحملة المنظمة ٤٩١هـ / ١٠٩٧م ، وكان الجيش مقسمًا إلى أربع أقسام ، والذي يهمنا هو القسم الأول الذي كان تحت قيادة جودفري دي بوايون Godfrex de Bouillon .

وعلى أي حال نجحت هذه الحملة في تأسيس أربع كيانات صليبية هي الرهاو أنطاكية وبيت المقدس وأخيرًا طرابلس[١٠] .

وسنقف بشيء من التفصيل على كيفية سيطرتهم على بيت المقدس . إذ كان واليها من قبل الخليفة الفاطمي المستعلي(٤٨٧ – ٤٩٥هـ / ١٠٩٤ – ١١٠١م) الأمير افتخار الدولة، فاحكموا الحصار على المدينة لمدة أربعين يومًا تقريبًا ، اضطر بعدها افتخار الدولة للاستسلام ، وبذا دخلوا المدينة[١١] ، واعملوا السيوف في رقاب المسلمين ، بل وأقاموا المذابح المروعة[١٢] ، وقد وصف الشارتري هذه المذبحة في عدة مواضع من كتابه "وتم ذبح حوالي عشرة آلاف في المعبد .ولو أنك كنت موجودا هناك لغاصت قدماك حتى العقبين في دماء المذبوحين ترى ماذا أقول ؟ إننا لم نترك أحدا منهم على قيد الحياة .ولم ينج حتى النساء والأطفال " "عندما جرى

---

[٩] قونية، من أعظم مدن الإسلام بالروم، وهي موضع مدينة القيروان . انظر الحموي، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، م٤، ص ١٠٢ .

[١٠] يوشع براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٢٩ . وعن تفاصيل سقوط أنطاكية انظر
Cahen, C., la Syrie de nord à l'époque des croisades, Paris, 1940, pp. 207-260; Dominique Paladilhe, *La grande Aventure des croises*, Paris, 1979, pp.109 – 113 .
وعن سقوط طرابلس انظر
Archer, op. cit, p.156.

[١١] ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ص ١٧١ ؛ ابن خلدون، العبر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ج٥، ص ٢١ ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج٣، تحقيق محمد محمد حلمي، القاهرة، ١٩٩٠م، ص ٢٣؛ ابن إياس، جواهر السلوك في أمر الخلفاء والملوك، تحقيق محمد زينهم، الدار الثقافية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص ٨٧.

[١٢] ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عطا، مصطفى عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ج١٧، ص ٤٧ ؛ أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٢٨ ؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ص ١١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ص ١٦٦ ؛ ريمون دي جيل،تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس ،ترجمة سهيل زكار ،الموسوعة الشامية ،ج٦،دمشق ،١٩٩٥م ،ص٢٩٥.

رجالنا وسيوفهم مشرعة عبر أرجاء المدينة ولم يبقوا على أحد حتى أولئك الذين يرجون الرحمة سقط الجمع كما تسقط التفاحات العفنة من الأغصان المهزوزة ،وكما تسقط جوزة البلوط من الأشجار المتمايلة " "آه من عفن الرائحة التي كانت حول أسوار المدينة ، والتي كانت مرمية حيثما تم قتلها " [١٣] .

وبعد ذلك كتب جودفري إلى البابا أوربان الثاني يبشره بهذا الفتح ، الذي كان ينتظره، ويقول له : " إذا شئت أن تعلم ماذا فعلنا بأعدائنا في المدينة المقدسة ، فلا نخفين عليك ، أن فرساننا كانوا يخوضون داخل هيكل سليمان ، وفي مجاز صحنه ، بدماء المسلمين حتى الركاب"[١٤] .

من وقوف الباحثة على النصين السابقين، أولهما لشاهد العيان فوشيه الشارتري ندرك عدة أمور نوردها في النقاط التالية :

- مدى بشاعة الجرائم المروعة المرتكبة من قبل الصليبيين في بيت المقدس .
- نتج عن كثرة الجرائم الصليبية تكوين البحيرات الدموية ، التي وصلت إلى ركاب الخيل ، وأدت إلى تعفن المدينة.
- كثرة من قتل من المسلمين .
- عدم مراعاة الصليبيين لحرمة الأماكن المقدسة حينما اعتصم المسلمون بها فرارا من السيوف الصليبية .
- تكونت البحيرات الدموية من كثرة إهدار وسفك الدماء الإسلامية البريئة .
- إن تعجب الشارتري من كثرة القتلى وعجزه عن إيجاد مصطلح لغوي يعبر عما رأته عينيه يدل على بشاعة وضخامة المذابح .

---

[١٣] فوشيه الشارتري، الوجود الصليبي في الشرق العربي، ترجمة قاسم عبده، ذات السلاسل، الكويت، ص ١٥٣،١٥٤،١٦٥ .

[١٤] سعيد البرجاوي، الحروب الصليبية في المشرق، دار الآفاق، بيروت، ط١، ١٩٨٤م، ص ١٦٩ .

- عظم الحقد الصليبي على المسلمين حين قتلوا النساء والأطفال الأبرياء فلو كان هدفهم تحرير البيت المقدس فقط لما أعملوا سيوفهم في رقاب الأبرياء .
- إن كثرة القتلى من المسلمين جعلت الشارتري يجزم بأنه لم يبق احد على قيد الحياة ، كما أنها كناية عن ضخامة عدد القتلى .
- وصف الشارتري السيوف الصليبية بأنها تشرع بالقتل فتفتك بكل من يقابلها من المسلمين.
- إن الصليبيون لم يرحموا أي فئة من المسلمين بل اتبعوا سياسة الإبادة الجماعية .
- كان المسلمون يبادون بالجماعات ولذلك وصفهم الشارتري بالجمع .
- عبر الشارتري عن قتل المسلمين بالسقوط دليل عن هلاكهم قبل أن يقاوموا العدوان الصليبي .
- استخدم الشارتري أسلوب الفخر والسخرية والتشبيه لسقوط المسلمين في أيديهم .
- تشبيه سقوط المسلمون بالتفاحة العفنة يدل أن المجاعات قد أهلكتم ولذا استنفذت طاقاتهم ،فأي ريح هادئة ستسقطهم بسهولة تامة .
- حينما وصف الشارتري سقوط المسلمون بنفس سقوط جوزة البلوط فغنه يدل أن قوة المسلمين أضحت ضعيفة فأي ريح تتمايل بها وتسقطها وعبارة الأشجار المتمايلة كناية عن تفرق وحدة الصف الإسلامي .
- إن تأوه الشارتري وتضايقه من رائحة جثث القتلى يدل على الإبادة الجماعية للمسلمين حيث بقيت الجثث جاثمة في أماكنه دون أن تجد أحدا يواريها

أما خطاب جودفري إلى البابا أوربان الثاني فإن له دلالات أيضًا من عدة جوانب :

- حرص البابوية وخاصة الراعي لها على أن تحقق الحملة شيئًا من أهدافها .
- تطلع جودفري لنيل رضا البابوية عنه حتى يشعرهم بتبعيته لهم كقائد عسكري .

- أن وصف جودفري لسكان بيت المقدس بالأعداء ، دليل على شدة العداء الذي يضمره للمسلمين ، وحتى أبناء جلدته المسيحيين .
- لقد نظر جودفري للمجازر التي أقاموها بأنها حدث سعيد ومن دواعي السرور والفخر به إعلانه وعدم إخفائه .
- حينما خص جودفري في خطابه بالذكر دماء المسلمين ، يدل على أن سعادتهم العظمى بإعلان أن أكثرية القتلى كانت من الجانب الإسلامي ، حتى يبتهج البابا بهذا النصر ويدب الرعب في قلوب المسلمين .

تعيين جودفري حاكماً لمملكة بيت المقدس :

بعد أن استولى الصليبيون على مملكة بيت المقدس عقدوا اجتماع بشأن انتخاب حاكم لبيت المقدس[١٥] . وقد جرت الآراء منقسمة إلى قسمين . إذ رأى الفريق الأول أن يتولى الحكم رجل دين ليضمنوا سيطرة البابوية على الأمور بحجة أن الحروب الصليبية قامت نتيجة لدعوتهم إلى ذلك .

أما الفريق الآخر فرأى أن يتولى الحكم رجل عسكري ، وذلك بحجة أن المملكة في ظل ظروفها الراهنة كمملكة ناشئة تحتاج إلى رجل عسكري يحافظ على كيانها ، بالإضافة إلى بذل الجهود الحثيثة لتوسيع نفوذها ، فضلا عن محاربة الأعداء المحيطين بهم[١٦] .

فاستحسن الجميع الرأي الثاني فتم انتخاب جودفري دي بوايون (٤٩٣ – ٤٩٤هـ / ١٠٩٩ – ١١٠٠م) . وقد وصف بنبل الشخصية والمهارة العسكرية ، والقيادة المتأنية ، والأسلوب الراقي[١٧] .

---

[١٥] وليم الصوري، الحروب الصليبية ، ج٢، ص ١٤٤ ؛ فوشيه الشارتري، الوجود الصليبي في الشرق العربي، ص ١٥٦ .

[١٦] سعيد البرجاوي، الحروب الصليبية في المشرق، ص ١٧٤ – ١٧٥ ؛ خاشع المعاضيدي، تأريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ط٢، ١٩٨٦م، ص ٤٨ ؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية ، ج١، ص ٢٠٣ .

وتواضـعًا منـه لـم يتخـذ لقـب ملـك Roi وإنمـا اتخـذ لقـب حـامي القبـر المقـدس[١٨] Advocatus sancti Sepulchri . وهذا اللقب أدى إلى حفظ النظام النهائي للدولة الفرنجية الجديدة[١٩]. وقد أدى تواضع جودفري إلى تأخير قيام ملكية صليبية قوية منظمة تستطيع بيت المقدس في ظلها أن تعيش وسط الأخطار الجسيمة المحيطة بها[٢٠] .

كما أن هذا اللقب يعني الاعتراف بأن هذه الدولة ليست لها صفة سياسية بحتة ، إنها لها صفة دينية تعطي للكنيسة نوعًا من الإشراف عليها[٢١] .

وفي تقدير الباحثة أن عزوفه عن لقب ملك ، واتخاذه للقب السابق ، ليس تواضعًا منه فقط ، بل كان يرمي من وراءه التقرب إلى البابوية أصحاب الفريق الأول ، حتى تبارك تتويجه وتدعم أعماله العسكرية بعد ذلك .

وعلى أي حال كان أمام جودفري دور مهم في مواجهة الحظر الفاطمي القادم عبر مصر في صورة الأفضل بن بدر الجمالي الذي يدافع عن الأراضي الفاطمية في بلاد الشام ، والتي تطلع الصليبيون للسيطرة عليها عشية استيلائهم على بيت المقدس[٢٢] .

جودفري وأعماله العسكرية :

لقد أرسل أهل نابلس[٢٣] وفدًا إلى جودفري يدعونه لتسليم المدينة ، مقابل حصولهم على الأمان .

---

[١٧] فوشيه الشارتري، الوجود الصليبي في الشرق العربي، ص ١٥٦ .
Iorga, (N.), *Breve Histoire des croisades et de leurs fondation en terre sainte*, Paris, 1924, p. 67; Michu, *Histoire des croisades*, Paris, 1829,I, p. 436.

[١٨] مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ١٢٠ .

[١٩] رينيه جروسيه، الحروب الصليبية، ترجمة أحمد أبيش، دار قتيبة، دمشق، ط ١، ٢٠٠٢م، ص ٤٩ .

[٢٠] سعيد عاشور، الحركة الصليبية ، ج ١، ص ٢٠٣ .

[٢١] خاشع المعاضيدي وآخرون، تأريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص ٤٨ .

[٢٢] محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية ، ص ٩٠ .

وفي الحقيقة إن سبب مبادرة أهل نابلس وعرض الاستسلام كان نتيجة للرعب الذي أصابهم من المذابح المروعة التي أقامها الصليبيون عشية دخولهم إلى بيت المقدس[٢٤] ، وفي تقدير الباحثة أيضًا أنهم فقدوا الثقة أن تقدم أي نجدة إسلامية خارجية لإنقاذهم . أما جودفري فقد قبل دعوة أهل نابلس وأرسل إليهم تانكرد وأخيه استاش[٢٥] .

ولنا أن نتساءل لماذا لم يخرج جودفري لاستلام نابلس بنفسه .

في رأي الباحثة أن جودفري كان منشغلاً بتنظيم الأوضاع الداخلية لمملكته الناشئة ، فضلاً عن أن جودفري كملك جديد يفضل أن يخرج على رأس حملة عسكرية يستعرض فيها قواته ، هذا بالإضافة إلى أنه على دراية تامة بمدى خبرة تانكرد واستاش العسكرية ، وذلك لأنهم شاركوا في جيش واحد حين قدوم الحملة الصليبية الأولى .

وعلى أي حال نجح تانكرد واستاش في تسلم مدينة نابلس . وفي تلك الأثناء وصلت الأنباء بأن خليفة مصر الفاطمي المستعلي قد جمع العسكر من كل البلاد الخاضعة لسلطانه ، ووضع كل هذه العسكر تحت قيادة أمير الجيوش الوزير الأفضل ، وأمره أن يزحف بهذا الجيش إلى بلاد الشام ، ليقضي على الصليبيين ، ويستعيد منهم بيت المقدس[٢٦] . فسار الأفضل بهذه الجند ، وخيم بهم أمام عسقلان[٢٧] .

---

[٢٣] نابلس، مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين مستطيلة لا عرض لها كثيرة المياه . انظر الحموي، معجم البلدان، م٤، ص ٣٥٩ .

[٢٤] فايد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٨٥م، ص ١١٦؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية ، ج ١، ص ٢٠٧ .
Grousset, R., *L'Empire du Levant*, Paris,1964, p.197

[٢٥] مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ١٢٠ .

[٢٦] المقريزي، اتعاظ الحنفا ، ج ٣، ص ٢٤ .

[٢٧] عسقلان، مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحرين بين غزة وبيت جبرين . انظر الحموي، معجم البلدان ، م٣، ص ٣٢٧ ؛ بنيامين التطيلي، الرحلة، ترجمة عزرا حداد، المطبعة الشرقية، بغداد، ط١، ١٩٤٥م، ص ١٠٩؛ القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، د.ت.، ص ٢٢٢؛ كمال موريس، الموسوعة الجغرافية للوطن العربي، دار الجيل، بيروت، ط١٩٩٨م، ص ٣٧٥.

وفي ذلك الوقت خرج تانكرد واستاش من نابلس وتوجهوا إلى قيسارية[٢٨] ، ومنها إلى الرملة[٢٩]، فعثروا بها على جمهور من العرب ، فانطلقوا في آثارهم ، وألقوا القبض على الكثيرين منهم ، وحملوهم على الإفضاء إليهم ببيانات تتعلق بموقفهم وعددهم[٣٠] ، وبالنواحي التي يعتزموا أن يقاتلوهم فيها ، فلما علم تانكرد بذلك ، أنفذ رسولاً إلى الدوق جودفري وإلى جميع الأمراء ببيت المقدس يقول لهم : " ليكن معلومًا لديكم أن القوم يعدون العدة في عسقلان لمهاجمتنا ، فبادروا بالمجيء بجميع القوات التي تستطيعون جمعها"[٣١]

وفي الحقيقة أن الأفضل لم يبادر بدخول عسقلان مباشرة ، لأنه كان يأمل أن ينتظر قليلاً رغبة في أن تصله مساعدات عسكرية من المسلمين كافة[٣٢] ، وذلك بحكم وحدة العدو المشترك لهم .

وفي تقدير الباحثة أن هذا التأخير ليس في صالح الجيش الفاطمي لأن هذا الوقت قد علم الصليبيون فيه بالجيش الفاطمي ، فزحفوا للتصدي له .

أما الصليبيون فقد توجهوا للدوق جودفري فاختار رجالاً أهل خبرة لحراسة المدينة وإدارتها ، أما هو فقد مضى ومعه كونت فلاندرز إلى سهول الرملة فعسكر فيها[٣٣] . وكان غرضه من ذلك أن الرملة تعد أقرب نقطة آمنة إلى عسقلان ، فضلاً أنه أراد أن يستطلع عن قرب أخبار الجيش الفاطمي ، ثم ينتظر وصول تانكرد وأخيه استاش من نابلس لينضما لهما بقواتهما[٣٤] .

---

[٢٨] قيسارية، بلد على ساحل بحر الشام تعد في أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام . انظر الحموي، معجم البلدان ، م٤، ص ١٠٧ .

[٢٩] الرملة، مدينة عظيمة بفلسطين وكانت قصبتها . انظر الحموي، معجم البلدان، م٢، ص ٤٢١ .

[٣٠] مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ١٢٠ .

[٣١] مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ١٢١ .

[٣٢] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، د.ت.، ج٥، ص ١٥٠ .

Stevenson, W.B., *The crusaders in the East*, Beirut, 1968, p.35

[٣٣] مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ١٢١ .

[٣٤] مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ١٢١ .

كما أن الدوق جو دفري أرسل الرسل من قبله لدعوة القادة الآخرين الذين كانوا باقين في بيت المقدس في انتظار الخبر اليقين عن الجيش الفاطمي[٣٥] .

وتضمنت رسالة الدوق جودفري خبر تدفق العدو ، وأنه نصب خيامه على مقربة منهم، فلم يتوان ريموند في جمع العسكر إذ اصطحبوا معهم قوة مؤلفة من ألف ومائتي فارس ، وما يقرب من تسعة آلاف جندي من المشاة ، وأقاموا في ابلين[٣٦] مدة يوم ، فرأوا على البعد في السهل قوة كبيرة من الفاطميين ، فأرسلوا قوات استطلاعية من مائتي فارس مدججين بالسلاح[٣٧] .

ولما صارت كتيبة الاستطلاع أقرب ما تكون للجيش الفاطمي ، تبينت فيه أعداد ضخمة من الماشية والخيول والجمال ، فاستولى عليها الصليبيين بلا قتال[٣٨] . ومن خلال الأسرى المسلمين ، عرف الصليبيون أن الوزير الأفضل في معسكر قريب، وأنه عاقد للعزم للزحف بعد يومين على الجيش الصليبي .

وعن موقف الصليبيون من هذا الخبر ، فإنهم تأهبوا سريعًا للقتال وفي الصباح الباكر دخلوا واديًا خصيبًا قريبًا من ساحل البحر ، وضربوا فيه معسكراتهم ، ثم قاموا بترتيب الجيش للقتال . إذ جعلوها على تسع فرق ثلاث منها في الطليعة ، وثلاث منها في القلب ، والثلاث الباقيات في الساقة ، وعلى كل فرقة قائد محنك ، كما جعلوا جماعة من المشاة ورماة النشاب أما الفرسان ، كما أخذوا الماشية معهم حتى يعتقد بأن عدد الجيش الصليبي لا نهاية له[٣٩] .

ومن وجهة نظر الباحثة أن هذه خطة موفقة من قبل الصليبيين إذ ضمنوا أن يتصدوا للقوات الفاطمية من أي جهة تهاجمهم ، أيضًا أحسنوا اختيار القواد ذوي الخبرة المحنكين ،

---

[٣٥] وليم الصوري، الحروب الصليبية ، ج ٢، ص ١٦٣ .

[٣٦] ابلين، قرية من قرى مصر بأسفل الأرض. الحموي، معجم البلدان، م١، ص ٧٢ .

[٣٧] وليم الصوري، الحروب الصليبية ، ج ٢، ص ١٦٤ .

[٣٨] فوشيه الشارتري، الوجود الصليبي في الشرق العربي، ص ١٥٧ .

[٣٩] وليم الصوري، الحروب الصليبية ، ج ٢، ص ١٦٥؛ فوشيه الشارتري، الوجود الصليبي في الشرق العربي، ص ١٥٨ .

فضلاً عن أن رماة النشاب ستكون مهمتها فتح الطريق أمام الجيش الصليبي ، أما الماشية فإنها إذا تحركت تثير الغبار والأتربة في آخر الجيش فيعتقد بأنه آثار جيش آخر قادم .

وفي اليوم التالي قاموا بشن هجوم كاسح على الجيش الفاطمي بشكل مفاجئ ، فأيقن الفاطميون بالهلاك ، فتولوا هاربين متراجعين للوراء ، وحملهم جزعهم على تسلق الأشجار للاختفاء وراءها[٤٠] " لكن رجالنا تصيدوهم رميًا بالسهام والحراب ، واختفى البعض بالارتماء على الأرض ، بيد أن رجالنا ذبحوهم ذبح الأغنام في السوق"[٤١] .

من القول السابق للمؤرخ المجهول ندرك مدى حرج موقف المسلمين ، حتى أنهم لاذوا خلف الأشجار ، كما أن الصليبيين لم يرحموهم بأن أقاموا المذابح المروعة ، ومن كثرة القتلى شبههم بالأغنام .

أما القائد الأفضل الذي وصل أمام عسقلان حزينًا يائسًا ، فقد أخذ يبكي ويقول :

" **يا أرواح الأرباب ، أن العين لم تبصر مثل ما جرى ، ولا سمعت الأذن بمثل ما حدث ! أيتها الأرواح : يا من لا تعدلك قوة ، ولا يماثلك بأس ، ولا تضاهيك فروسية قط ، يا من لم تهزمي أبدًا أمام أية أمة ولكنك غلبت على أمرك على يد هذه الفئة المسيحية الصغيرة ما أبلغ الحزن وما أشد الأسى ! ماذا أقول وماذا أعيد ! أتراني أهزم على أيدي شعب منبوذ جبان ، وجماعة من الصعاليك لا يملكون من الدنيا سوى المزود والعصاة ! هؤلاء هم الذين تتبعوا الشعب المصري الذي طالما وزع عليهم الصدقات حين كانوا يجوبون بلادنا ملتمسين الإحسان ؟ لقد جمعت هنا مائتي ألف فارس ، ولكني رأيتهم يثنون أعنة جيادهم ويوجهونها شطر مصر هربًا ، وانطلقوا لا يلوون على الوقوف أمام أمة الفرنجة ، وإنني لأقسم بمحمد وبقوة جميع أربابنا ، أنني لن أقود أية جماعة من الفرسان بعد الآن مادمت قد طردت على يد مثل هذا الشعب الأجنبي . لقد أحضرت جميع أنواع السلاح والآلات لمحاصرة الفرنجة في**

---

[٤٠] ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٢٨٦؛ ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ص ٦٧ .

[٤١] مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ١٢٣ .

بيت المقدس ، لكنهم هم الذين هاجموني وتعقبوني مدة يومين . وأسفاه ! ماذا أقول أكثر من ذلك ؟ لقد ضاعت هيبتي إلى الأبد في مصر"[٤٢].

من قول الأفضل السابق نستطيع أن ندرك مدة تألمه من الهزيمة التي لحقت بقواته بالرغم من ضخامة عددها الذي بلغ نحو مائتي ألف فارس ، ومما زاد ألمه أن يهزم على يد جيش صليبي طالما أنعم عليهم بإحسانه ، ولذا أقسم ألا يقود أي جيش مرة أخرى .

أما عن أهل عسقلان فاستقر الرأي بينهم على مصالحة الصليبيين بقطيعة تقدر بحوالي اثني عشر ألف دينار ، لأنهم أضحوا بلا مدافع بعد رحيل الأفضل بقواته إلى مصر ، وغنم الصليبيون الغنائم الوفيرة ، فرحلوا بها عائدين إلى بيت المقدس[٤٣] .

وفي تقدير الباحثة أن هذه الأموال سيتقوى بها الصليبيون في معاركهم القادمة ضد المسلمين .

أما عن نتائج معركة عسقلان ، فإنها كشفت للصليبيين مدى ضعف الجبهة الإسلامية وتفككها، فلم ترد أي نجدة لإنقاذ أهل عسقلان بعد رحيل الأفضل بجيوشه إلى مصر . كما أنها أوضحت للمسلمين في فلسطين مدى عجز الخليفة الفاطمي عن إنقاذهم من أي عدوان خارجي ، وفي المقابل ازدادت الروح المعنوية تفاؤلاً لدى الصليبيين في مواصلة الاستيلاء على العديد من الأراضي الإسلامية خاصة الواقعة تحت النفوذ الفاطمي في فلسطين[٤٤] .

وعن سير الأحداث بعد ذلك فقد تطلع جودفري للسيطرة على الخليل[٤٥] ، وذلك لعدة أسباب منها ، أنها منطقة زراعية وتشرف على الطرق التجارية المارة بها ، كما أن إخضاع الخليل لا يحتاج إلى أسطول بحكم كونها منطقة داخلية ، وبالتالي فلا خطر من تدخل

---

[٤٢] مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ١٢٤ .

[٤٣] ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٢٨٦ .

[٤٤] فايد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ص ١١٧ .

[٤٥] الخليل، اسم موضع وبلدة بقرب البيت المقدس ؛ الحموي، مصدر سابق، م٢، ص ٢٤٦ .

الأسطول الفاطمي لنجدتها ، فضلاً عن مكانتها الديني ، لوجود المزارات بها خاصة مقام إبراهيم عليه السلام . وقد نجح جودفري في السيطرة على الخليل[٤٦] .

ولنا نتساءل لماذا سعى جودفري لطلب العديد من المكاسب بالرغم من قلة قواته .

في تقدير الباحثة أنه يريد أن يكسب نفسه مجدًا خالدًا يضفيه لمملكة بيت المقدس ، خاصة أنه يظهر بمظهر التقي المتواضع حتى في اللقب ، لذا يلتمس المكاسب الدينية والعسكرية في آن واحد . بالإضافة أنه لمس ضعف الدولة الفاطمية في معركة عسقلان الآنفة الذكر .

وكان يركز على المدن الساحلية التي كان يهدف منها حماية المساعدات الأوربية القادمة عن طريق البحر ، وذلك من أجل مساعدة الصليبيين ، وفضلاً عن ذلك كان جودفري يطمح إلى إتاحة الفرصة للفرنجة لترتيب أوضاع البلاد من النواحي السياسية والإدارية والدينية والعسكرية[٤٧] . بعد ذلك طلب جودفري من تانكرد أن يسيطر على إقليم الجليل[٤٨] ، مقابل أن يقطعه إياه ويكون تابعًا لجودفري[٤٩] .

وفي الحقيقة أن جودفري لم يجد خيارًا أمامه سوى هذا العرض لأن قواته أضحت ضئيلة العدد، خاصة بعد أن رحل الكثير من الصليبيين إلى بلادهم في الغرب ، فأصبح تانكرد أقوى زعيم نورماني في الوقت الراهن ،وفي الجانب الآخر أضحت المملكة الصليبية الناشئة في أشد الحاجة إلى المزيد من القوات لمجابهة الأعداء [٥٠] .

---

[٤٦] محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية ، ص ٩١ .

[٤٧] جلال سلامة، عكا أثناء الحملة الصليبية الثالثة، دار الفاروق، فلسطين، ط١، ١٩٩٨م، ص ٤٥ .

[٤٨] الجليل، مدينة في ساحل الشام ممتد إلى قرب حمص . الحموي، معجم البلدان، م٢، ص ٧٢ .

[٤٩] خاشع المعاضيدي، تأريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص ٤٨ .

[٥٠] رينيه جروسيه، الحروب الصليبية، ص ٤٩ .

Setevenson, op. cit, p. 36 ; Iorga, op.cit, p. 67.

أما تانكرد في رأي الباحثة قد قبل هذا العرض رغبة منه في أن يثبت أقدامه في بلاد الشام ، عن طريق الحصول على امتيازات نظير مشاركته للصليبيين في حروبهم ، فكانت نقطة المصلحة المشتركة هي التي جمعت بينهما .

وعلى أي حال نجح تانكرد في السيطرة على الجليل بأقل الجهود الممكنة ، لأن الجليل كانت موضع نزاع بين دقاق حاكم دمشق والفاطميين ، لذا تقاعسوا في الدفاع عنها[٥١] .

ومما يؤسف له –في رأي الباحثة– أن النزاعات الشخصية لدى الحكام المسلمين قد حالت دون وحدتهم في مجابهة عدوهم الصليبي المشترك .

ثم تطلع تانكرد للسيطرة على مدينة طبرية[٥٢] ، لأنه يخطط أن يتخذها مقرًا وعاصمة لإمارة إقليم الجليل ، فاستولى عليها بسهولة تامة[٥٣] ، وهذا الأمر قد شجعه أن يمد نفوذه للسيطرة على بيسان[٥٤] وتمكن من ذلك[٥٥] .

ومما يؤسف له أن تفكك المسلمون وعدم وجود القيادة الموحدة ، جعلت منهم فريسة سهلة ، بل وثمينة لأعدائهم.

بعد ذلك هاجم الصليبيون مدينة أرسوف[٥٦] فتصدى أهلها للدفاع عنها ، أما جودفري فقد ترك في الرملة بضعة مئات من قواته الصليبية ، لتهديد مدينة أرسوف بين حين وآخر ، وشن غارات عدوانية على ضواحيها ، وفرض الحصار على مداخلها[٥٧] .

---

[٥١] ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج١، ترجمة السيد الباز العريني، ط٣، ١٩٩٣م، ص ٤٦٠ .

[٥٢] طبرية، بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية، وهي من طرف جبل الطور مطل عليها وهي من أعمال الأردن، الحموي، معجم البلدان ، م٣، ص ٢٤٨ .

[٥٣] يوشع براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين ، ص ٣١ .

[٥٤] بيسان، مدينة بالأردن بالغور الشامي .الحموي، معجم البلدان ، ص ٤١٤ .

[٥٥] حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، ج١، دار الثقافة، القاهرة، ط٢، ١٩٨٤م، ص ١٩٤ .

[٥٦] أرسوف، مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا. الحموي، معجم البلدان ، م١، ص ١٢٦ .

[٥٧] سعيد عاشور، الحركة الصليبية ، ج ١، ص ٢١٣ .

ولنا أن نتساءل عن أهداف جودفري من الإجراءات السابقة .

في تقدير الباحثة أنه يريد أن يزعزع أمن أرسوف من فترة لأخرى ، حتى تضعف ، كما أنه أراد أن يستولي عليها بالتدريج بدءً من الضواحي كما أنه خطط لضعف أرسوف اقتصاديًا وعسكريًا في فرض الحصار عليها ، مما سيؤدي إلى انهيار قوتها في النهاية ، وهذا ما سيحدث بالفعل لاحقًا .

كما استطاعت إحدى القوات الصليبية أن تقبض على بعض المزارعين المسلمين وقتلهم ثم قاموا بتقطيع أنوفهم وأقدامهم وأيديهم[٥٨] .

ومما لا شك فيه أن الإجراء السابق كان هدفه بث الرعب في قلوب المسلمين حتى تنهار قواهم . وهذا التصرف الصليبي السابق أثار غضب المسلمون ، فأرسلوا سفارة عاجلة إلى الوزير الأفضل لطلب المعونة . وأمدهم بقوة تقدر بثلثمائة جندي[٥٩] .

ونلاحظ أن الوزير الأفضل لم يخرج على رأس هذه القوات ، وذلك لأنه انكسر ناموسه في معركة عسقلان السابقة .

أما أهالي أرسوف فقد قويت روحهم بهذه النجدة ، لكنهم وقعوا في كمين نصبه الصليبيون لهم، لذا اختار أهالي أرسوف الدخول في طاعة جودفري مقابل قطيعة سنوية رمزًا لهذه التبعية[٦٠] . بعد ذلك هاجم الصليبيون المدن الساحلية[٦١] فهاجموا عسقلان وقيسارية وعكا[٦٢] .

---

[٥٨] ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٣٢٥ .

[٥٩] ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٣٢٥؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ، ج١، ص ٤٥٧ .

[٦٠] ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٣٢٥؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٢٦؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١، ص ٤٥٨.

[٦١] المقريزي، اتعاظ الحنفا ، ج٣، ص ٢٦ .

[٦٢] عكا، اسم بلد على ساحل بحر الشام. الحموي، معجم البلدان ، م٣، ص ٣٤٣.

ونظراً لعدم تقديم الدولة الفاطمية أي مساعدات للوقوف في وجه العدوان الصليبي فقد خارت قواهم واختاروا أسهل الطرق السلمية إذ دخلوا في التبعية الصليبية نظير دفع جزية مشتركة شهرية قدرها خمسة آلاف دينار ، كما تعهد أهالي هذه المدن بتقديم عدد كبير من المواشي والغلال. مقابل أن يكف الصليبيون عن غاراتهم عليهم وأن يوقفوا إعمال السيف فيهم[٦٣] .

ولقد أثر هذا التصرف على كثير من حكام المناطق الداخلية ، إذ عقدوا معاهدات سلام ودية مع الصليبيين أسوة بحكام المدن الساحلية . وذلك بغرض حماية أنفسهم ، وليضمنوا سلامة قوافلهم التجارية من ناحية أخرى .

ونصت المعاهدة على التبادل التجاري مع مملكة بيت المقدس ، وهذا مما يدعم الصليبيون اقتصادياً، وساندت المدن الإيطالية الصليبيين في حروبهم ضد المسلمين بغرض الحصول على امتيازات تجارية[٦٤] .

وعن تطور الأحداث بعد ذلك فقد تجرأ الصليبيون على مهاجمة إقليم السواد[٦٥] وكان تابعاً لدقاق ملك دمشق ، فلما هاجموها لمدة أسبوع اضطر أميرها أن يطلب النجدة من دقاق ملك دمشق ، فأمده بخمسمائة فارس قاموا بشن هجوم على الصليبيين ، ثم عادوا إلى دمشق، لذا قام تانكرد بإرسال سفارة من ستة فرسان إلى دمشق تحمل إنذاراً إلى دقاق يطلبون منه أن يعتنق المسيحية أو أن يترك دمشق فوراً[٦٦] .

---

[٦٣] جلال سلامة، عكا أثناء الحملة الصليبية الثالثة، ص ٤٤ .

[٦٤] فايد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ص ١١٩؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١، ص ٤٥٨ .

[٦٥] السواد، سمي بالسواد لخضرته بالزروع والأشجار. الحموي، معجم البلدان، م٣، ص ٨٦ .

[٦٦] رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١، ص ٤٦٠ .

وللباحثة وقفة على عرض تانكرد السابق نوردها في عدة نقاط :

- أن تانكرد يتصرف بحكم مكانته عند وجود جودفري كأمير مستقل ، فهو يراسل دقاق دون إذن جودفري .
- تمثل في عرض تانكرد الدهاء السياسي والديني في آن واحد ، حين طلب من دقاق في المقام الأولالدخول في المسيحية ، لأنه لو دخل فيها سوف يكون تابعًا بل وحليفًا للصليبيين .
- حرص تانكرد أن يظهر نفسه بمظهر الحليف القوي ، والذي يتطلع للسيطرة على دمشق مستقبلاً، وتمثل ذلك حين صرح مباشرة لدقاق بأن عليه أن يترك دمشق في القريب العاجل إذا لم يدخل في المسيحية .

أما موقف دقاق من هذا العرض ، فإنه رفضه ، بل وهدد الرسل بالقتل إن لم يدخلوا في الإسلام ، فقبل أحدهم بينما رفض الآخرون فقتلهم[٦٧] .

ومن وجهة نظر الباحثة أن قتل دقاق للرسل يعد مخالفة لما اتفقت عليه القوانين الإسلامية ، والنظم الدولية الحديثة في منح السفراء حق الحماية والحصانة الدبلوماسية ، حتى يتمكنوا من أداء مهامهم بأمان تام[٦٨] .

أما عن موقف تانكرد من دقاق لما علم بنبأ قتل سفرائه من قبل دقاق .

---

[٦٧] رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١، ص ٤٦٠ .

Grousset, *Histoire des croisades*, I, p.186

[٦٨] للوقوف بالتفصيل على حصانة السفراء انظر عز الدين فودة، ما الدبلوماسية، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ط١، ١٩٧١م، ص ٣٢؛ محمد علي الحسن، العلاقات الدولية في القرآن الكريم والسنة، مكتبة النهضة، الأردن، ١٩٨٢م، ص ٢٩٣ ؛ صالح عبد الكريم الزيد، أحكام عقد الأمان والمستأمنين في الإسلام، ط١، ١٩٨٦م، ص ٥٢ – ٥٣ ؛ محمد شريف بسيوني، "حماية الدبلوماسيين في ظل القانون الإسلامي"، ترجمة محمد عبد العليم مرسي، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد السادس، الرياض، ١٩٨٢م، ص ٧٠٨ .

في الحقيقة لقد غضب تانكرد وخرج هو وجودفري بجميع قواتهما وهاجما الجهات والمزارع المحيطة بدمشق ، وقاموا بشن الغارات الخاطفة لمدة أسبوعين[٦٩] .

ومن وجهة نظر الباحثة أن هذه خطة صليبية موفقة ، إذ خرج تانكرد بمعية الدوق جودفري ليظهر أمام الرأي العام بأنه يحظى بتأييد الدوق الصليبي ، كما أن في اتحاد القوتين تدعيم عسكري لمركزه .

وإما اتخاذهما لمبدأ شن الغارات الخاطفة فهذا لإرهاب أمير دمشق ، وكذلك لإضعاف نفوذ المناطق المحيطة بدمشق فتدخل في طاعة الصليبيين ، وهذا مما يضعف نفوذ أمير دمشق .

وهذا ما حدث بالفعل إذ لم يستطع دقاق أن يتصدى للعدوان الصليبي على إقليم السواد ، وهذا مما دفع أميره للدخول في تبعية تانكرد مقابل دفع جزية سنوية فوافق تانكرد على ذلك[٧٠] .

ولنا أن نتساءل عن سبب عدم استيلاء تانكرد وجودفري على السواد ودمشق ، بالرغم من أنهما الكفة الراجحة في القتال .

في تقدير الباحثة أن تطلع جودفري في المقام الأول هو أن يستولي على المدن الساحلية، وهذا مما يدعم النفوذ الصليبي في بلاد الشام ، خاصة بعد ما لمس ضعف الخليفة الفاطمي ، فضلاً عن أن الأموال التي يأخذها مقابل التبعية له من قبل الأمراء المسلمين كانت خير مورد اقتصادي لهم في تجهيز القوات الصليبية

وفي عام ٤٩٣هـ / ١١٠٠م وصل أسطول بندقي مكون من مائتي سفينة بهدف المشاركة في الحروب الصليبية، وتحقيق المكاسب التجارية لهم

---

[٦٩] ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١، ص ٤٦٠ .

[٧٠] ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١، ص ٤٦٠ .

وقد استقبل جودفري في يافا قائد الأسطول البندقي والأسقف الذي صحبه وبدأوا في مناقشه الشروط التي سيبذل البنادقة بمقتضاها المساعدة للصليبيين .

وعرض البنادقة شروطهم على ملك بيت المقدس الصليبي وهي : وضع أنفسهم تحت خدمة المملكة الصليبية في الفترة ما بين ٢٤ يونية ، ٥ أغسطس سنة ١١٠٠م . في مقابل منحهم كل مدينة ساحلية أو داخلية من المدن التي استولى عليها الصليبيون أو يستولون عليها مستقبلاً كنيسة ، وقطعة أرض فضاء صالحة لإقامة سوق عليها ، وطلبوا كذلك التنازل عن ثلث أية مدينة تسقط في أيديهم في المعارك القادمة على أن يحتفظ الصليبيون بالثلثين الآخرين ، وإذا استولى الصليبيون على مدينة طرابلس ، يتنازل لهم جودفري عنها بدون أية التزامات أو واجبات إقطاعية ، وذلك كله بالإضافة إلى إعفائهم من جميع الضرائب الجمركية على تجارتهم في مختلف مدن مملكة بيت المقدس ، وإصدار الأوامر إلى الأفصال بعدم التعرض لسفن البنادقة التي تضطر إلى الاحتماء بشواطئ الشام . وأن تظل حمولتها وبحارتها وركابها في أمان[٧١] .

ويتضح من هذه الشروط السخية التي تقدم بها البنادقة ، أنهم كانوا يتوقعون من وراء زيارتهم للشام هذا العام ظفرًا عظيمًا[٧٢] .

وقد استغل الصليبيون هذا الأسطول في حصار مدينة عكا من ناحية البحر ، كما قام دايمبرت بطرق بيت المقدس البيزي Daimberr de pisa[٧٣] ، وتانكرد بالمساهمة في حصار عكا من ناحية البر[٧٤] .

---

[٧١] عفاف سيد صبره، العلاقات بين الشرق والغرب علاقة البندقية بمصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ط ١٩٨٣م، ص ٢٠ – ٢١ ؛ سامي سلطان سعد، أسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى والجمهوريات الإيطالية من ١١٠٠ – ١٤٠٠م . رسالة ماجستير غير منشور، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٥٨م، ص ٢٦ ؛ هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج ١، ترجمة أحمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م، ص ١٥٠ .

[٧٢] سامي سلطان، أسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى والجمهوريات الإيطالية، ص ٢٦ .

[٧٣] عن كيفية اختيار دايمبرت بطرق لبيت المقدس . انظر وليم الصوري، الحروب الصليبية ، ج ٢، ص ١٧٢.

ولنا أن نقف بشيء من التفصيل على هذا الحصار ، إذ كانت مدينة عكا شديدة التحصين ، وتطلع جودفري للسيطرة عليها حتى يحمي ميناء يافا[٧٥] الصليبي الوحيد من الهجمات الإسلامية ، وخاصة من عكا . كما تطلع أيضًا للسيطرة على حيفا[٧٦] .

فاستقر الرأي بين تانكرد وقنصل البنادقة جون ميخائيل John Mikhael على مهاجمة عكا ، مقابل حصولهم على كنيسة وسوق تجاري .

وكان عكا تمثل مرفأ هامًا للصليبيين ، فضلاً عن أنها بوابة السيطرة على بلاد الشام[٧٧] . ففرض الحصار البري على عكا بقيادة تانكرد ، ودايمبرت البيزي أما من البحر فيتولى حصارها أسطول البنادقة بقيادة جون ميخائيل.

وفي الحقيقة أن إحكام السيطرة على عكا براً وبحرًا في آن واحد يساعد في سرعة الاستيلاء عليها .

وبالرغم من هذه الخطة المحكمة ، والتي شرع الصليبيون في تنفيذها فإنه لم يكتب لها النجاح وذلك لعدة أسباب منها : وفاة جودفري حامي بيت المقدس[٧٨] ، وهذا يمثل هزة سياسية إذ سينشغل الرأي العام باختيار ملكًا جديدًا لبيت المقدس ، كما توفي أيضًا قائد الأسطول البندقي جون ميخائيل بعد ثمانية أيام من فرض الحصار على عكا[٧٩] .

---

[٧٤] جلال سلامة، عكا أثناء الحملة الصليبية الثالثة، ص ٤٦ .

[٧٥] يافا، مدينة مشهورة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكا . انظر الحموي، معجم البلدان، م٤، ص ٤٩٣ .

[٧٦] حيفا، مدينة على ساحل بحر الشام قرب يافا. الحموي، معجم البلدان، م٢، ص ٢٠٤ .

[٧٧] جلال سلامة، عكا أثناء الحملة الصليبية الثالثة، ص ٤٦ .

[٧٨] فوشيه الشارتري، الوجود الصليبي في الشرق العربي، ص ١٦٩ ؛ عبد المنعم ماجد، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر، القاهرة، ط ٤، ١٩٩٤م، ص ٣٧٣ .

[٧٩] جلال سلامة، عكا أثناء الحملة الصليبية الثالثة، ص ٤٧ .

لذا فكر تانكرد بأن يستغل الحملة لصالحه الخاص ، فأقنع القوات بأن تفك حصارها لعكا وتتجه إلى حيفا لأنها الأقرب إلى بيت المقدس ، فانسحبت القوات ، وقامت بحصار حيفا[٨٠] ، ولما أوشكت على السقوط في أيدي الصليبيين علم تانكرد بأن جودفري أوصى قبل وفاته ، بأن تكون حيفا من نصيب أمير آخر يدعى جيلديماركاربنيل[٨١] .

ومن وجهة نظر الباحثة أن جودفري أوصى بهذه الوصية خشية من زيادة أطماع تانكرد في التوسع على حساب أركان المملكة الصليبية . مما سيجعل نفوذه يؤهله بأن يكون مناوئًا للملك الصليبي الجديد .

ولذا هدد تانكرد بالانسحاب ، وأعلن أنه لن يعمل لحساب غيره ، خاصة أن حيف كانت الثغر الطبيعي لإمارته في الجليل ، فنجح البطرق دايمبرت في استرضاء تانكرد ووعده بحيفا ، فضاعف تانكرد جهوده حتى سقطت حيفا في أيدي الصليبيين ، وبذا اكتملت إمارة الجليل بعد أن حصلت على ثغرها على البحر[٨٢] .

ولنا أن نتساءل لماذا طلب دايمبرت من تانكرد أن يصمد في حصار حيفا بدلاً من الوصي الجديد

في تقدير الباحث أن تانكرد أفضل من ينجح في إسقاط حيفا بحكم خبرته العسكرية ، فضلاً عن ذلك أنه الأكثر استفادة من غيره من الصليبيين إذا سقطت حيفا لقربها من إمارته الجليل . هذا بالإضافة إلى خشية دايمبرت أن يحصل انشقاق في الصف الصليبي لأن تانكرد لن يتنازل بسهولة عن حيفا ، فيستغل المسلمون هذه الفرصة فيهاجموا المملكة الصليبية ، محاولين استرداد بعض أراضيهم ، والأهم مما سبق أن تانكرد كان على علم ببنود المعاهدات الإيطالية الصليبية فسوف يلتزم بتنفيذ هذه البنود مما يحقق للمدن الإيطالية مصالحها التجارية في بلاد الشام .

---

[٨٠] سعيد عاشور، الحركة الصليبية ، ج١، ص ٢٢٣ .
Hagenmeyer, H., *Chronologie de la prémire croisade*, VI., pp. 354-356.

[٨١] رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١، ص ٤٦٣ .

[٨٢] سعيد عاشور، الحركة الصليبية ، ج١، ص ٢٢٤؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١، ص ٤٦٩ .

الخاتمة

الحمد لله الذي أعانني على كتابة البحث المعنون بـ(الفاطميون وجهادهم ضد الصليبيين في عهد جودفري (٤٩٣-٤٩٤هـ/١٠٩٩-١١٠٠ م) . فمن خلال هذه الدراسة استعرضت النقاط التالية ، وتوصلت للعديد من النتائج ، وفي مقدمتها

- إن ضعف العالم الإسلامي وتفككه وتناحر قياداته ، كان له الدور الكبير في نجاح الملة الصليبية الأولى .
- إن تسابق جحافل الحملة الصليبية الأولى للوصول إلى بيت المقدس وسيطرتهم عليه ، كان تحت تأثير الشعارات الدينية ، والجهاد المقدس .
- إن إقامة الصليبيون للمذابح المروعة للمسلمين عشية سيطرتهم على بيت المقدس ، يدل على حقدهم الدفين على المسلمين .
- لقد حرص جودفري عشية انتخابه ملكا لبيت المقدس وهو يمثل الجانب العسكري ، أن يتقرب للبابوية بالألقاب حتى يمثل الجانين العسكري والديني في آ ن واحد .
- إن انسحاب كثير من الأمراء الصليبيين وعودتهم إلى بلادهم في أوربا بحجة أن هدفهم الديني انتهى باستعادتهم لبيت المقدس ، قد سبب عجزا في الجيش الصليبي الباقي في مملكة بيت المقدس .
- إن تحالف جودفري مع قناصل أساطيل المدن الايطالية القادمة إلى بلاد الشام ، كان غرضه تعويض النقص البشري في جيشه ، وكذلك دعم جيشه البري بالأساطيل البحرية حتى يتفوق على الأسطول الفاطمي .
- إن تطلع جودفري للاستيلاء على العديد من المدن الفاطمية يكشف بجلاء أن أهداف الحملة الصليبية تجاوزت الحد الديني ، الذي يقف عند سيطرتهم على بيت المقدس.

- لقد كانت معركة عسقلان بمثابة الحد الفاصل بين الصليبيين والفاطميين ، إذ بعد انتصار الصليبيين فيها ، تتوالى سقوط العديد من مدن فلسطين في أيديهم ، كما أن كثيرا من حكام هذه المدن جنحوا للسلم مع الصليبيين ، إذ دخلوا في طاعتهم مقابل التبعية والجزية (القطيعة) السنوية .
- إن تألق نجم تانكرد النورماني عند جودفري كان سببا رئيسا في أ ن يمنحه إمارة الجليل مكافأة على جهوده العسكرية في دعم النفوذ الصليبي ، فهو لم يرحل إلى بلاده أسوة بكثير من الأمراء الصليبيين
- إن تسابق المدن الايطالية في الاشتراك في حصار عكا هو الرغبة في الاستيلاء عليها ، لحصانة موقعها ولأنها مرفأ تجاري عظيم .
- حرص تانكرد على فك الحصار عن عكا بعد وفاة جودفري وتوجيهه الجند المحاصرين على حيفا ،وذلك خدمة لمصالحه الشخصية ،إذ أن حيفا تمثل الثغر الطبيعي لإمارته الجليل .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية :

- **ابن الأثير:** أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني ، ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢م.
  - الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، ط ١٩٧٩م .
  - **ابن إياس :** محمد بن أحمد ،ت ٩٣٠هـ \ ١٥٢٤م
  - جواهر السلوك في أمر الخلفاء والملوك ،تحقيق محمد زينهم ،الدار الثقافية ،القاهرة ،ط١,٢٠٠٦م .
- **ابن تغري بردي:** جمال الدين أبو الحسن يوسف تغري بردي الأتابكي ، ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م .
  - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٢م .
- **ابن الجوزي:** أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ، ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٢م .
  - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- **أبو الفدا:** الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة ، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م .
  - المختصر في أخبار البشر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٧م .
- **القز ويني:** الإمام العالم زكريا بن محمد بن محمود ، ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م.
  - آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ، د(ت) .
- **ابن خلدون:** عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م .

- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٢م .

– **ابن العبري:** غريغوريوس أبو الفرج بن هارون ، ت ٦٦٠هـ / ١٢٨٦م .

– تاريخ مختصر الدول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١، ١٩٩٧م .

– **ابن القلانسي:** أبو يعلى حمزة بن القلانسي ،ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م

– ذيل تاريخ دمشق ، مكتبة المتنبي ، القاهرة ، د (ت) .

– **ابن كثير:** عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ، ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م

–البداية والنهاية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٥م .

– **المقريزي:** تقي الدين احمد بن علي ، ت ٨٤٥هـا ١٤٤٢م .

– اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق محمد حلمي، القاهرة ،١٩٧٣م .

– **ابن ميسر:** محمد بن علي بن يوسف ،ت ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م .

– المنتقى من اخبارمصر ،تحقيق أيمن فؤاد ، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة

– **ابن الوردي:** أبو حفص زين الدين ، ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م .

– تاريخ ابن الوردي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٦م.

ثانيًا: المصادر المعربة:

– **بنيامين التطيلي:**

- رحلة بنيامين ، ترجمة عزرا حداد ، المطبعة الشرقية ،بغداد ،ط١، ١٩٤٥م
.

– **ريمون دي جيل:**

- تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس ،ترجمة سهيل زكار ،الموسوعة الشامية ،ج٦، دمشق ،١٩٩٥م.

– **فوشيه الشارتري:**

- الوجود الصليبي في الشرق العربي ، ترجمة قاسم عبده ، ذات السلاسل، الكويت ، ط١ ، ١٩٩٣م .

– **مجهول:**

- أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة حسن حبشي ،دار الفكر القاهرة . ١٩٥٨ م.

– **وليم الصوري:**

- الحروب الصليبية ، ترجمة حسن حبشي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٤م .

ثالثا : المراجع العربية :

أحمد الشريف ، حسن محمود:

– العالم الإسلامي في العصر العباسي ، دار الفكر العربي، القاهرة ، ط١٩٩٥م .

أحمد مختار العبادي:

– في التاريخ العباسي والفاطمي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧١م .

جلال حسني سلامة:

– عكا أثناء الحملة الصليبية الثالثة ، دار الفاروق ، فلسطين ، ط١ ، ١٩٩٨م.

جوزيف نسيم يوسف:

– العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى ،الإسكندرية ،ط١,١٩٨٣م .

حامد غانم زيان:

– الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية ، دار الثقافة ، القاهرة ، ط ١٩٨٣م .

حامد غنيم أبو سعيد:

– الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية ، دار الثقافة ، القاهرة ، ط٢، ١٩٨٤م .

خاشع المعاضيدي وآخرون:

– تأريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ،ط٢ ،١٩٨٦ م .

سعيد أحمد برجاوي :

– الحروب الصليبية في المشرق ، دار الآفاق ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٤م .

سعيد عبد الفتاح عاشور:

– الحركة الصليبية ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ، ط٥ ، ١٩٩٩م .

صالح عبد الكريم الزيد:

– أحكام عقد الأمان والمستأمنين في الإسلام ، الدار الوطنية لنشر الكتب، الرياض، ط١، ١٩٨٦م .

عبد المنعم ماجد:

– ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها دار الفكر العربي ،القاهرة ،ط٤، ١٩٩٤م .

عز الدين فوده:

– ما الدبلوماسية، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ط١، ١٩٧١م .

عفاف سيد صبرة:

– العلاقات بين الشرق والغرب ،دار النهضة العربية ، القاهرة ،١٩٨٣م .

فايد حماد عاشور:

– جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٥م

–كمال موريس:

– الموسوعة الجغرافية للوطن العربي ،دار الجيل ،بيروت ،ط١٩٩٨م

– محمد عبد القادر أبو فارس:

– دروس وتأملات في الحروب الصليبية ،دار جهينة ،عمان ،ط١,٢٠٠٢م .

محمد مؤنس عوض:

– الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ، دار عين ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٠م

محمد علي الحسن :

– العلاقات الدولية في القرآن الكريم والسنة، مكتبة النهضة الإسلامية، الأردن، ١٩٨٢م .

محمد محمد مرسي الشيخ :

– الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ط ١٩٩٠ .

رابعًا: المراجع المعربة:

ارنست باركر :

– الحروب الصليبية ،ترجمة الباز العريني ،دار النهضة العربية ،بيروت .

– **رينيه جروسيه :**

– الحروب الصليبية ، ترجمة احمد أيبش ، دار قتيبة ، سوريا ، ط١ ، ٢٠٠٢م .

– **ستيفن رنسيمان :**

– تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة الباز العريني ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٩٣م .

– **هانس ماير:**

– تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة عماد الدين غانم ، مجمع الفاتح للجامعات ، ليبيا ، ط ١٩٩٠م .

– **هايد :**

– تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة ،١٩٨٥م .

– **يوشع براور :**

– الاستيطان الصليبي في فلسطين ،ترجمة عبد الحافظ البنا ،دار عين ،القاهرة ،ط١ ، ٢٠٠١م .

خامسا: الرسائل الجامعية:

– سامي سعد سلطان

- أسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى والجمهوريات الايطالية ، رسالة ماجستير غير منشورة ،كلية الآداب ،القاهرة ،١٩٥٨م .

سادسا : المراجع الأجنبية:

- Archer, T., *The story of the Latin kingdom of Jerusalem* London, 1894.
- Cahen, C., *La Syrie de nord à l'époque des croisades*, Paris,1940
- Conder, *The Latin kingdom of Jerusalem*, London, 1897.
- Grousset, R., *Histoire des croisades et du rouame franc. de Jersalem*, Paris,1943.
- Grousset, R., *L'empire du Levant*, Paris, 1964.
- Hagenmeyer, H., *Chronoiogie de la prémire*, tom. VI.
- Iorga, N., *Breve Histoire des croisades et de leurs fondation en terre sainte*, Paris, 1924.
- Michu, J., *Histoire des croisades*, Paris, 1829.
- Paladilhe, Dominique, *La grande aventure des croisades*, Paris, 1979.
- Stevenson, W. B., *The crusaders in the East*, Beirut, 1968.

سابعا :الدوريات:

محمد شريف بسيوني :

–حماية الدبلوماسيين في ظل القانون الإسلامي، ترجمة محمد عبد العليم مرسي، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، العدد ٦، ١٩٨٢م .